

بطاقة قراءة

«الغارة الكبرى»

المجلد الأول – ولادة النظام

روبير كازانوفاس — الطبعة الثالثة المنقّحة والمصحّحة (2026)
رواية تاريخية جماعية — عمليات انتزاع الأعمال الفنية في فلاندرز وإيطاليا، 1794-1798

1. بطاقة تعريفية

العنوان: الغارة الكبرى، المجلد الأول: ولادة النظام

المؤلف: روبر كازانوفاس

النوع الأدبي: رواية تاريخية جماعية، متعددة الأصوات (مفوضون، علماء، عسكريون، أمناء متاحف)
البنية: تنويه + فهرس + مقدمة + أربعة فصول (32 قسمًا مرقّمًا — المجلد الأول من ملحمة في أربعة أجزاء)
الطبعة: الطبعة الثالثة المنقّحة والمصحّحة، الإيداع القانوني أبريل 2026 (نسخة إلكترونية ونسخة ورقية)

الرقم الدولي المعياري للكتاب: 978-2-488999-66-3

الفترة (الفترات) المشمولة: يونيو 1794 – 19 مايو 1798، من عمليات الانتزاع الفلمنكية إلى إبحار الأسطول من طولون نحو مصر
الأماكن الرئيسية: باريس؛ غنت، أنتويرب، بروكسل، مالن (فلاندرز)؛ ميلانو، بارما، مودينا، بولونيا، روما، البندقية (إيطاليا)؛ طولون
مورد تكميلي: المجلد الأول من ملحمة في أربعة أجزاء تمتد إلى حملة مصر؛ الأعمال المذكورة (الحمل الصوفي، أبولو بلفيدير
لاوكون، جيا سان مارك، تجلي رافائيل) انتزعت فعليًا بين عامي 1794 و1798
الناشر الشريك: إنترناشونال ريستيتوشنز (منظمة غير حكومية يرأسها المؤلف)

2. عرض عام

تستعيد رواية «الغارة الكبرى» عبر معرض من المفوضين والعلماء والعسكريين، الولادة المنهجية للنظام الفرنسي لانتزاع الأعمال
الفنية بين عامي 1794 و1798. تفتتح الرواية بمداولة هادئة للجنة التعليم العام في باريس، حيث يحرر الأب غريغوار التقرير
،التأسيسي، ثم تتبع حملتين متعاقبتين للاستيلاء: حملة فلاندرز المغزوة (الفصل الأول)، التي قادها الرسام دافيد بارتجال وعنف
وحملة شمال إيطاليا وروما (الفصلان الثاني والثالث)، التي جرى ترشيدها وتكثيفها تحت سلطة الجنرال بوناپرت المتصاعدة
ويُختتم المجلد بالاستعدادات لحملة مصر (الفصل الرابع)، في اللحظة عينها التي يستعد فيها النظام، بعد أن أصبح محكمًا على
الساحات التصويرية الأوروبية، لتغيير حجمه وقارته.

لا تتبع الرواية بطلًا واحدًا: فهي تنقل مركزها من فصل إلى آخر بين عدة فرق من المفوضين — غريغوار، دافيد، لوبرون، هاسنفراتز
تووان، فوجاس دو سان-فون وليفيسك في فلاندرز؛ ثم مونج، بيرتوليه، دونون ولاكانال في إيطاليا، تحت وصاية بوناپرت المتنامية
وفي مواجهتهم، تتجسد سلسلة من أمناء المتاحف والحراس — القس دو فوس في غنت، عالم الآثار إينيو كيرينو فيسكونتي في
الفاتيكان، الكاردينال بورجيا في مكتبة الفاتيكان — كل بدوره، مقاومة التراث المنهوب العاجزة. ويهتم السرد بالمداولات القانونية
والجرد التقني بقدر اهتمامه بمشاهد الانتزاع نفسها، في مزيج دائم بين اللغة الإدارية والوصف المادي للأعمال.

3. ملخص كل فصل

التنويه

يضع المؤلف الرواية بين إعادة التشكيل التاريخي والخيال: جميع الأعمال المذكورة انتزعت فعليًا بين عامي 1794 و1813، وقد
وُجدت معظم الشخصيات فعليًا، لكن بعض المشاهد والحوارات تم تخيلها لضرورات السرد.

المقدمة — باريس، يونيو 1794

يحرر الأب غريغوار، في لجنة التعليم العام، التقرير الذي يؤسس للعقيدة الفرنسية: يجب نقل الأعمال الفنية من الأراضي المغزوة إلى باريس وتجميعها في متحف وطني. هذا النص، وهو مجرد توصية بين توصيات أخرى، سيشعل مع ذلك كل ما سيتبعه

الفصل الأول — عمليات الانتزاع الفلمنكية (1794)

تتقاسم لجنة من سبعة أعضاء — غريغوار، لوبرون، دافيد، هاسنفراتز، فوجاس دو سان-فون، توفان، ليفيسك — فلاندرز المغزوة في غنت، تنتزع فرقة غريغوار من لوحة مذبح الحمل الصوفي ألواحها المركزية رغم احتجاجات القس دو فوس، الذي يأمر دافيد باعتقاله. في أنتويرب، تُنزل لوحات روبنس من الكاتدرائية بدورها. في بروكسل، يتفاوض هاسنفراتز وليفيسك مع المفوض بوتيه على جرد قصر كودنبرغ ومجموعة فان راين؛ في مالمين، يُنتزع صليب للمسيح. يتبع الفصل بعد ذلك القافلة عبر طرق فلاندرز الوعرة حتى وصولها وتفريغ حمولتها في باريس، ثم تركيب الأعمال في المتحف تحت أنظار اللجنة — قبل فاصل أخير يوحى بحجم ما بدأ للتو.

الفصل الثاني — الاندفاع نحو إيطاليا (1796)

تتشكل فرقة جديدة في باريس — دونون، مونج، بيرتوليه، برئاسة لاكانال — لتحضير، على خريطة إيطاليا المفتوحة، عمليات الانتزاع القادمة: مخطوطة كوديكس أتلانتيكوس ولوحات بروغل في ميلانو، لوحات كوريج في بارما، المدرسة البولونية، وبالفعل مسألة روما. ثم يتولى بونابرت قيادة حملة إيطاليا ويفرض إيقاعه: ففي ميلانو، تُجرى عمليات الجرد تحت ضغط السرعة؛ وتعتبر قافلة، جبال الألب؛ وفي بارما، تُغلف لوحات كوريج رغم الحرارة؛ وفي مودينا وبولونيا، يحاول أمين المكتبة أقو وأمين المحفوظات أوريتي دون جدوى، إبطاء عملية الانتزاع.

الفصل الثالث — روما والبندقية (1797)

يدخل مونج وبرتوليه روما، ويتعاون قسري من عالم الآثار فيسكونتي، يقومان بجرد مجموعات الفاتيكان ثم تفكيكها: يُنزل تمثال أبولو بلفيدير عن قاعدته، ويُفكك لاوكون في سبعة صناديق، ويُنزل لوحة تجلي رافائيل رغم التحذيرات من هشاشتها، وتُنزع خمسمئة مخطوطة — من بينها كوديكس فاتيكانوس — من مكتبة الفاتيكان وسط احتجاجات الكاردينال بورجيا. وفي الوقت نفسه، يتسبب بونابرت في سقوط البندقية: يصوت مجلس الشيوخ البندقي على حل نفسه، ويتنازل الدوج الأخير لودوفيكو مانين وتُشحن بدورها نحو جبال الألب جياد سان مارك البرونزية، ولوحة عرس قانا لفيرونيزي في سان جيورجيو ماجوري، وأعمال الكنائس والأخويات البندقية (فراري، سان سيباستيانو، مدرسة سان مارك الكبرى).

الفصل الرابع — المشروع المصري (1797-1798)

عائدًا إلى باريس، يبدأ بونابرت بالفعل بالإعراض عن أوروبا: يتبلور مشروع حملة مصر، وتُجنّد لجنة من العلماء، ويتجمع الأسطول في طولون. يتبع الفصل الاستعدادات الأخيرة على متن السفينة أورينت، وليلة الرحيل المشحونة وتردد بونابرت نفسه، في الصباح الباكر من 19 مايو 1798، قبل الأمر الذي يطلق أربعين ألف رجل وثلاثمئة وسبعة وأربعين سفينة نحو مصر — مختتمًا المجلد عند عتبة قارة جديدة.

4. الشخصيات الرئيسية

الأب هنري غريغوار (1750-1831)، عضو في المؤتمر الوطني

محرر التقرير التأسيسي حول مصير الأعمال المغزوة؛ الضمير الأخلاقي للجنة الفلمنكية، وإن كان ينفذ ما حرّكه هو نفسه

جاك-لوي دافيد (1748-1825)، رسام، عضو في لجنة الأمن العام

الصوت الأكثر حماسًا في عملية الانتزاع بفلاندرز، دون أي تردد بشأن الوسائل المستخدمة — حتى أنه أمر باعتقال قس عجوز لتسريع العمليات

لوبرون تاجر أعمال فنية وأمين جرد

واضع قوائم الانتزاع، في فلاندرز ثم في إيطاليا؛ يجسد الترشيح المنهجي للنظام، حتى قبل أن يفرض عليه بوناوبرت إيقاعه

هاسنفراتز كيميائي ومهندس

المسؤول اللوجستي عن نقل الأعمال؛ اهتمامه الدائم بالحفاظ المادي يتناقض مع الاستعجال السياسي للمفوضين

غاسبار مونج (1746-1818)، عالم رياضيات

المكلف، رفقة بيرتوليه، بجرد المجموعات الرومانية؛ الشخصية الأكثر التباسًا في الرواية، تعصف بها الشكوك التي لا يدونها قط في قوائمها

كلود-لوي بيرتوليه (1748-1822)، كيميائي

رفيق مونج العملي في روما، تتصدى برودته الإدارية بشكل منهجي لاحتجاجات فيسكونتي وبورجيا

دومينيك فيفان دونون المدير المستقبلي للوفر

مسافر عرف إيطاليا قبل الثورة؛ معرفته بالميدان تنير، منذ الفصل الثاني، استراتيجية الانتزاع المقبلة

الجنرال نابليون بوناوبرت (1769-1821)

غائب في البداية، ثم حاضر في كل مكان: تسلمه القيادة في إيطاليا يحول الانتزاع الحرفي في البدايات إلى نظام مركزي ومنهجي، حتى أمر الإبحار نحو مصر الذي يختتم المجلد

إينيو كيرينو فيسكونتي عالم آثار، أمين متحف الفاتيكان

مُجَبَّر على التعاون في جرد وتفكيك مجموعات الفاتيكان، يدون في سجل شخصي كل عمل يُفقد — آخر ما تبقى له من مقاومة

القس دوفوس من كاتدرائية القديس بافو في غنت

أول معارض في الرواية لمنطق الانتزاع؛ اعتقاله، منذ الفصل الأول، يحدد نبرة كل ما سيتبع

5. المحاور الرئيسية

السرقنة متكررة في زي الإجراء

إن الهدنات والمعاهدات والمراسيم والمغالطات القانونية (الأعمال «الرئيسية» «مقابل» الثانوية) «تحول النهب منهجيًا إلى فعل إداري، دون أن تكفّ قط، في الاحتجاجات التي تثيرها، عن أن تُسمّى سرقنة

المركزية بوصفها إيديولوجيا

باريس تستحق أن تكون عاصمة الفنون: «تساءل الرواية عن القناعة، التي يحملها غريغوار ثم دافيد، بأن الجمع يبذل أقل مما» ينير — في مواجهة الاعتراض المتكرر لأمناء المتاحف، الذين يرون أن اتساق مجموعة ما لا يعوّض أبدًا مكان العمل وتاريخه

أمين المتحف العاجز، حارس الذاكرة

دوفوس في غنت، فيسكونتي وبورجيا في روما، أقو وأوريثي في مودينا وبولونيا: شخصية واحدة تتكرر في كل مرحلة من الرواية، هي شخصية الحارس الذي لا يستطيع منع الانتزاع لكنه يدون، من أجل الذاكرة، كل تفصيل فيه

مادية العمل الفني

الأبعاد، الوزن، أنواع الخشب، سُمك الحشوات: تتوقف الرواية بدقة شبه تقنية عند الهشاشة المادية للتحف الفنية، حتى تفكيكها. لاوكون في سبعة صناديق، وكأن العنف الحقيقي يكمن في تفاصيل التغليف هذه أكثر مما يكمن في الخطابات المرافقة له

صعود بونابرت وتحول النظام

من الفوضى المرتجلة في فلاندرز إلى الكفاءة المخيفة لحملة إيطاليا، تجعل الرواية من تولي بونابرت السلطة اللحظة التي يتوقف فيها الانتزاع عن كونه ممارسة مثيرة للجدل ليصبح نظامًا للدولة، جاهزًا، في نهاية المجلد، للتصدير خارج أوروبا

6. الجزء المؤقت والجزء المتخيّل

من الحقائق التاريخية الثابتة: تقرير الأب غريغوار إلى لجنة التعليم العام، انتزاع لوحة مذبح الحمل الصوفي في غنت ولوحات روبنس في أنتويرب عام 1794، حملة إيطاليا ومعاهدة توليدو (1797)، النهب المنهجي للفاثيكان — أبولو بلفيدير، تفكيك لاوكون، تجلي رافائيل، مخطوطات مكتبة الفاتيكان —، سقوط البندقية وحلّ مجلس الشيوخ البندقي في 12 مايو 1797 تحت ضغط بونابرت تنازل الدوج لودوفيكو مانين، انتزاع جياياد سان مارك ولوحة عرس قانا لفيرونيزي، فضلًا عن مغادرة الأسطول الفرنسي طولون نحو مصر في 19 مايو 1798.

يبقى في نطاق الخيال الحوار والأفكار الحميمة المنسوبة إلى الشخصيات التاريخية (غريغوار، دافيد، مونج، بيرتوليه، دونون بونابرت، فيسكونتي)، فضلًا عن عدة شخصيات ثانوية — القس دو فوس، المفوض بوتيه — التي تجسد، دون أن تكون نسخة حرفية عنها، أشكال المقاومة الموثقة في أرشيف تلك الحقبة. وطبقًا لتنويه المؤلف، فإن مجمل الأعمال المذكورة وظروف انتزاعها تستند إلى أبحاث تاريخية موثقة.

7. البناء السردى والأسلوب

- تقسيم إلى أربعة فصول واسعة، تنقسم بدورها إلى أقسام عديدة (من 8 إلى 9 لكل فصل)، تتبع في كل مرة لجنة أو فرقة مختلفة بدلًا من بطل واحد.
- تركيب بالتناوب لا بشخصية مركزية: فلاندرز تعود لغريغوار ودافيد، وإيطاليا تعود لمونج وبرتوليه ودونون، تحت سلطة بونابرت المتنامية، الذي لا يظهر شخصيًا إلا في الفصل الثاني.
- شخصية متكررة لأمين المتحف-الشاهد (دو فوس، فيسكونتي، بورجيا، أفو، أوريي)، تتكرر في كل مرحلة جغرافية من الانتزاع وتمنح الرواية خيطها الموضوعي الوحيد في غياب خيط سردي واحد.
- كتابة ذات نزعة جردية — الأبعاد، الوزن، المواد، الطرق — تعامل الوصف المادي للأعمال بنفس الدقة التي تعامل بها المساومات الدبلوماسية.
- تصاعد منظم حول تولي بونابرت السلطة: النظام، المرتجل والعنيف في الفصل الأول، يصبح منهجيًا وحتميًا مع تقدم السرد حتى الانفتاح على مصر الذي يختتم المجلد.

8. اقتباسات لافتة

الاعتراف رغم الكلمة — الفصل الأول

«أستقون هذا ثقافة؟ — إنه نهب! سرقة محض وبسيطة!»

العبارة التي يرددها غريغوار على نفسه — الفصل الأول

«ستطلب الكنائس أعمالًا جديدة، أعاد غريغوار بصوت هادئ. هذا ما نقوله لأنفسنا كي يصبح الأمر محتملاً.»

أمين المتحف والمفوض — الفصل الثالث

«وأنتم، تختزلونها في ماديتها فحسب. من على حق؟ أمين المتحف الذي يحب الأعمال، أم الناهب الذي يراها غنيمة؟»

دوج البندقية الأخير — الفصل الثالث

«لن أحتاج إليه بعد الآن.»

تحذير فيسكونتي — الفصل الثالث

«أنتم منتصرون اليوم. ستُهزمون غدًا.»

9. تحليل نقدي

نقاط القوة

- إن شخصية أمين المتحف العاجز المتكررة (دو فوس، فيسكونتي، بوجيا، أفو، أوريي) تمنح الرواية عمودًا فقريًا موضوعيًا قويًا، رغم غياب شخصية تعبر السرد بأكمله.
- إن التباين، غير المعلق عليه أبدًا لكنه ثابت، بين المفردات القانونية للهدنات والوصف المادي للانتزاع (الوزن، الشقوق، التفكيك) (يجنب الرواية أي نبرة وعظمية مبالغ فيها).
- إن البناء في حركتين — الارتجال العنيف في فلاندرز، ثم الكفاءة المنهجية التي فرضها بونابرت في إيطاليا — يمنح تصاعدًا دراميًا حقيقيًا لموضوع متكرر بطبيعته (انتزاع بعد انتزاع).
- إن الاهتمام بالتفاصيل التقنية للحفظ (التعليب، الحشو، أنواع الخشب (يرسخ الرواية في واقع مادي نادر في الرواية التاريخية المكسرة للفن).

الحدود ونقاط الانتباه

- لا توجد شخصية تعبر المجلد بأكمله: يختفي غريغوار ودافيد بعد الفصل الأول، ومونج وبيروتولييه بعد الفصل الثالث، ما قد يخفف من تعلق القارئ على امتداد الرواية.
- إن كثافة الجرد والبيانات التقنية (الأبعاد، الوزن، الطرق)، وإن كانت تخدم المصدقية الوثائقية، تبطئ في بعض المواضع إيقاع القراءة، لا سيما في الفصل الثالث.
- الشخصيات النسائية غائبة عمليًا عن هذا المجلد الأول — جوزفين وحدها تُذكر، في الخلفية، ضمن أفكار بونابرت.
- إن الفصل الرابع، المخصص لاستعدادات حملة مصر، يبتعد عن موضوع الانتزاع الفني ليعيد تمركز السرد حول بونابرت نفسه، ما يجعله انتقاليًا أكثر منه فصلًا مستقلًا — وهو أمر منطقي لمجلد افتتاحي، لكنه يترك القارئ عند عتبة لا عند خاتمة.

10. خاتمة

تعيد رواية «الغارة الكبرى» (تشكيل، بدقة وثائقية نادرة، ولادة نظام: نظام الانتزاع المنهجي للأعمال الفنية كأداة للقوة الوطنية، من فلاندرز المغزوة عام 1794 حتى عتبة حملة مصر عام 1798. وتكمن قوتها في التكرار المضبوط لمشهد واحد — الجرد، الاحتجاج، التفكيك، القافلة — يُعاد تمثيله من بلد إلى آخر بفاعلين متجددين في كل مرة، وفي ثبات شخصية مقاومة واحدة، أمين المتحف-الشاهد، التي تمنح وحدتها الأخلاقية لرواية بلا بطل واحد. وباختتام هذا المجلد الأول على تردد بونابرت قبل أمر الإبحار، تُعلن الرواية أن هذا النظام، بعد أن أُحكِم على الفن الأوروبي، يستعد لتغيير حجمه — ممهدًا الطريق للمجلد التالي، المخصص لحملة مصر.

التحليل الأسلوبي

«الغارة الكبرى»

رواية روبير كازانوفاس — المجلد الأول، ولادة النظام

دراسة اللغة والبناء السردى والتأثيرات البلاغية

أنجزها بيير كولونج

نظام بدل بطل — لغتان، القانون والمادة — أمين المتحف-الشاهد — الجرد بوصفه أسلوبًا — تحوّل بونابرت

مقدمة منهجية

تتناول هذه الدراسة المجلد الأول من رواية «الغارة الكبرى» لروبير كازانوفاس، بكامله (التنويه، المقدمة، الفصول الأربعة). (وبدلاً من فرض شبكة تحليل معدة سلفاً على النص، تنطلق من ما يشكل خصوصية هذه الرواية بالذات: بناء منظّم عبر لجان متعاقبة بدلاً من شخصيات، كتابة تجاور دون أن تمزج مفردات القانون ومفردات المادة، شخصية أمين متحف تتكرر في كل مرحلة جغرافية، وتصاعد سردي مصمّم على صعود بونابرت، من الانتزاع الحرفي إلى النظام المركزي.

1. تركيب عبر لجان لا عبر شخصيات

لا تنتظم الرواية حول بطل واحد يعبر السرد بأكمله، بل حول فرق متعاقبة، تتشكل وتنحل على مدى الفصول: لجنة غريغوار-دافيد في فلاندرز في الفصل الأول، فريق مونج-بيرتوليه-دونون في إيطاليا في الفصلين الثاني والثالث، حاشية بونابرت في الفصل الرابع. وهكذا ينقل كل فصل مركز ثقله البشري بأكمله، دون شخصية وصل تضمن الاستمرارية.

لهذا الخيار البنوي نتيجة مباشرة: لا يتعلق القارئ بمصير فردي، بل بعملية — عملية الانتزاع — تتكامل من فصل إلى آخر، بمعزل عن الرجال الذين ينفذونها. وهذا التحول الدائم، أكثر من أي حبكة مثيرة للتشويق، هو ما يحمل الرواية.

2. لغتان لا تمتزجان أبداً: قانون الغنيمة ومادة العمل الفني

تجاور الرواية باستمرار سجلين. من جهة، لغة القانون والإدارة — «لجنة»، «هدنة»، «معاهدة توليدو»، «الأعمال المنصوص عليها»، «مادة» — التي تكسو الانتزاع بثوب الإجراء القانوني. ومن جهة أخرى، لغة تقنية وحسية لوصف الأعمال نفسها: أبعاد بدقة السنتيمتر، أنواع الخشب، الوزن بالكيلوغرامات، حالة المفصلات والشقوق. لا يعلّق النص أبداً على الفجوة بين اللغتين: يكتفي بجعلهما تتناوبان، جملة بعد جملة.

«نحن لا نبدد. نحن نركّز. — مجموعة متسقة؟ أئسمّون اتساقاً انتزاع الأعمال من سياقها
العريق لتكديسها في متحف حديث؟»

الفصل الثالث — بيرتوليه وفيسكونتي، يتصادم فيه نظاما اللغة في حوار واحد.

يظهر سجل ثالث كلما عادت الكلمة إلى أمناء المتاحف: مفردات الحفظ والترميم، إيقاع أبطأ، إلحاح على الهشاشة — وكأن اللغة نفسها تغيّر نسيجها بحسب من يحملها.

3. الشخصية المتكررة لأمين المتحف-الشاهد

تقابل كل مرحلة جغرافية من الرواية شخصية تجسد المقاومة العاجزة للنهب: القس دو فوس في غنت، أمين المكتبة أقو وأمين المحفوظات أوريتي في مودينا وبولونيا، عالم الآثار فيسكونتي والكاردينال بورجيا في روما. لا تعبر أي من هذه الشخصيات أكثر من فصل واحد، لكن وظيفتها السردية واحدة من طرف المجلد إلى طرفه: الاحتجاج، ثم التجاهل، ثم التدوين.

إن لفظة فيسكونتي، الذي يستأنف سجله فور مغادرة القافلة الرومانية ليدون فيه «كل عمل رحل، منشأه الدقيق، تاريخه»، هي الأكثر اكتمالاً في هذه السلسلة: تصبح الكتابة فيها، كما عند نظيره بورجيا، الفضاء الوحيد الذي يمكن فيه تسمية الخسارة دون عواقب.

«وبدأ يكتب. دون كل عمل رحل. منشأه الدقيق. تاريخه. ظروف انتزاعه. [...] لم تكن دقة الحركة تعوّض شيئاً، لكنه استمر.»

الفصل الثالث — فيسكونتي، وحيداً، بعد مغادرة القافلة نحو باريس.

4. كتابة الجرد: الدقة بوصفها أسلوباً

تكثر الرواية من المعطيات الرقمية — الأمتار، الكيلوغرامات، أنواع الخشب، مدد التغليف، أعداد الحراسة — بانتظام ينتهي إلى تشكيل أسلوب حقيقي. وهذه الدقة ليست أبداً اعتباطية: إنها تخدم قياس، لوحة بعد لوحة، الثمن المادي للانتزاع، في اللحظة عينها التي يقلل فيها الخطاب السياسي من شأنه.

«خمسمئة مخطوطة. خمسمئة شاهد على ألفي عام من الثقافة المكتوبة. خمسمئة قطعة لا تعوّض ستغادر روما نحو باريس.»

الفصل الثالث — جرد مكتبة الفاتيكان، على إيقاع تكرار الرقم.

5. بونابرت في الخلفية، ثم في الضوء الكامل — تحوّل النظام

— غائب عن المقدمة والفصل الأول، لا يُذكر إلا في بداية الفصل الثاني، لا يظهر بونابرت شخصياً إلا مع تولّيه قيادة حملة إيطاليا ويهيمن، منذ تلك اللحظة، على بقية الرواية حتى أمر الإبحار الأخير نحو مصر. هذا الدخول المؤجل يحوّل قدومه إلى تحوّل بنيوي: فالانتزاع المرتجل والعنيف الذي مارسه دافيد في فلاندرز يفسح المجال، تحت سلطته، لنظام منهجي، أسرع وأكثر فعالية. وبالتالي، كما توحى الرواية دون أن تصرّح به أبداً، أكثر خطورة على الأعمال نفسها —

«بونابرت ليس دافيد، قال مونج. — لا. بونابرت أكثر فعالية. وهذا ما هو خطير على الأعمال.»

الفصل الثاني — يُطرح التشخيص قبل وصول بونابرت نفسه إلى السرد.

6. المغالطة القانونية بوصفها موتيفة بنائية

«من فصل إلى آخر، تتكرر الآلية البلاغية نفسها: تُعاد صياغة فئة قانونية («الأعمال الرئيسية»، «عمليات الانتزاع المنصوص عليها القسم» (بأثر رجعي لتشمل ما لم تكن المعاهدة تنص عليه. هذه المغالطة، التي لا يدينها الراوي أبداً صراحةً، تُترك لمسؤولية» القارئ، الذي يراها تتكرر من غنت إلى روما بثبات شبه آلي.

«إن لم تكن قداسته راضية عن الشروط التي نطبقها، يمكننا إعادة التفاوض على المعاهدة بأكملها. بشروط أشد إجحافاً للكرسي الرسولي.»

الفصل الثالث — رد بونابرت على الكاردينال دوريا، الذي احتج على عدد الأعمال المنتزعة.

7. الإيقاع: من القائمة التقنية إلى المشهد الحوار

يتفاوت إيقاع الرواية بشدة بحسب ما تسرده. فمقاطع الجرد واللوجستيات تسير بجمل اسمية وتعدادات رقمية، تبطئ القراءة وتفرض انتباهاً شبه وثائقي. أما مشاهد المواجهة، في المقابل — دو فوس أمام دافيد، فيسكونتي أمام بيرتوليه، بونابرت أمام كازابيانكا ليلة الرحيل — فتستعيد إيقاعاً حوارياً، أكثر حيوية، يتركز فيه جوهر التوتر الأخلاقي للرواية.

إن الفصل الرابع، المبني بالكامل تقريباً على انتظار بونابرت وتردده قبل أمر الرحيل، يدفع هذا التباين إلى أقصاه: فبعد ثلاثة فصول ينظمها تراكم الأعمال المنتزعة، تتوقف الرواية عند حفنة ثوانٍ معلّقة، قبل أن تطلق الجملة الأخيرة كل شيء من جديد.

8. مواطن القوة والحدود الأسلوبية

نقاط القوة

- بناء بالتناوب بين الشخصيات لا يُضعف الرواية بل يجعل منها بورتريهًا جماعيًا لنظام لا لمسار فرد.
- كتابة جردية تصل إلى مرتبة الأسلوب، تمنح الانتزاع واقعًا ماديًا لا يستطيع الخطاب السياسي وحده أن ينقله.
- شخصية-موتيفة — أمين المتحف-الشاهد — تتكرر بأسماء مختلفة في كل مرحلة جغرافية، وتمنح الرواية بنية أخلاقية ظاهرة رغم غياب شخصية متكررة واحدة.
- دخول مؤجل لبونابرت يحول توليه السلطة إلى تحول أسلوبي حقيقي، لا مجرد حدث تاريخي مروي.

الحدود ونقاط الانتباه

- ،إن كثافة البيانات التقنية، وإن كانت تخدم المصدقية، قد تبطئ في بعض المواضع إيقاع القراءة على حساب التوتر الدرامي.
- لا سيما في مقاطع الجرد الطويلة في الفصل الثالث.
- إن غياب شخصية تعبر المجلد بأكمله، وإن كان متسقًا مع المشروع الجماعي، يحرم القارئ أيضًا من نقطة ارتكاز عاطفية على امتداد السرد.
- إن الفصل الرابع، المخصص لاستعدادات حملة مصر، يتعد عن موتيفة الانتزاع الفني الذي شكّل الفصول الثلاثة الأولى، ما يجعله انتقالًا نحو المجلد التالي أكثر منه فصلًا متجانسًا أسلوبيًا مع بقية المجلد.

خاتمة

إن أسلوب «الغارة الكبرى» لا يعود إلى باقة من الصور البلاغية بقدر ما يعود إلى آلية بناء: تركيب بالتناوب يجعل من النظام، لا من فرد، الموضوع الحقيقي للرواية؛ لغتان لا تُترجم إحداهما أبدًا إلى الأخرى، لغة القانون ولغة المادة؛ شخصية أمين متحف تتكرر، من بلد إلى آخر بوصفها الاستمرارية الأخلاقية الوحيدة؛ دخول مؤجل لبونابرت يحول السرد من الارتجال إلى المنهج. وهذه البنية أكثر من أي أداة معزولة بعينها، هي ما يجعل من هذا المجلد الأول السجل المتماسك لنظام قيد التشكّل — وهو يستعد، في صفحته الأخيرة، لتغيير قارته.

«لم تكن دقة الحركة تعوّض شيئًا، لكنه استمر.»

الفصل الثالث — الجملة التي تختصر وحدها موقف جميع أمناء المتاحف في الرواية.